

الفلسفة

للدكتور إبراهيم يويحيى مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير في النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشيء من الغرابة والخفاء . يقال : تقلف فلان إذا ظن أنه يعمى في التريب ولا يأتي بما ألقه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون في عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارده عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدُّ المحدث عنه وحديثه في عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالمصريون والتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يبيح في عصره ، ولا يأخذ بتسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان والفلسفة في بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النضج والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحجب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس في شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر في تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلي والخلقي ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قل أن تدرى عرشاً مستقيماً ، وكأن الفلسفة في نظرم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والمصور الحديثة أبحاث يمتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنائيات شماء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهي جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويتعرضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفي الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشيء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية في هذا البلد هي مباح ، وسلمة تعرض في مختلف الأسواق ، ومتاع

حق في التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت في ذلك أكثر إيماناً من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له في نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هي كل شيء . بيد أن الدولة والحكومة والزمامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبية المتطرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان في تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد إلى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء في جسمه أو عقله وروحه

وكأن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالية ، وإن كانت قد ظهرت آثار بخيرة منها في بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى في جميع العالم المتمددين أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك الفتاية المتطرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزارعها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت زعامتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التي قامت بالنعف والارهاب وما زال يسندها النعف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن الحق أن مصابرها ترتبط بمصائر زعمائها ومصائر القوى الضيفة التي تسندها ، ومن المرجح أنها ستتهار عند حدوث أول انفجار تام . على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذي يسحق شعوباً عربية بأسرها ، وذلك التطور الدهش في شؤون الزمامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تتب أحط العناصر والطبقات إلى أسنى الزمامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والذهبية ، وهي وسائل تذكرنا بالمصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التي تثيرها أذهان متمعبة منحلة : تقول لا ريب أن هذه الخواص التي تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتي هي ملاذ قوتها وحياتها ، هي في الواقع دلائل واضحة على انحلال الدنية القريية الحاضرة ، وعلى قرب انحمارها إلى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره . بل نلاحظ فوق هذا أنه كثيراً ما كتب في الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة في موضوع آخر ؛ وبذا انمكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها ، وظهرت الفلسفة في ثوب مشوه منقوص ؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المحتصين بتصميم في التعريف عن أنفسهم وتهاونهم في الدفاع عن فنونهم وعلومهم

ليست الفلسفة غربية بالقدر الذي يدعيه المرصون عنها ، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها . فللزراع فلسفته في حقله ، وللصانع فلسفته في مصنعه ، وللتاجر فلسفته في متجره ، وللرجل فلسفته مع زوجته ، وللزوجة فلسفتها مع بنها . لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة في تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح ؛ وتلك ولاشك فلسفة ذات مغزى عظيم . وما أصدق أرسطو إذ يقول : الانسان حيوان فيلسوف . على أن الفلسفة بمناتها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية ؛ وكل هما أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيراً يرضيه العقل ويوافق الواقع . فظواهر سرورنا ، وألمنا ، وقواعد سلوكنا ، ومعاملتنا ، وآراؤنا ومعتقداتنا ، هي في مجلتها موضوع الدراسات الفلسفية ، ومن منا يمر عليه يوم - بل ساعة - دون أن يحكم على شيء بأنه خير أو شر ، وعلى آخر بأنه صواب أو خطأ ، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح ؟ وهذه الأحكام الثلاثة هي شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم ، يعنيه أن يدرس ظواهرها ، ويضبط قوانينها ، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح . فالفلسفة إذن من الحياة في صميمها ، أو إن شئت هي الحياة كلها ؛ وكيف لا وهي دراسة للانسان في مختلف أحواله الفردية والجمعية ، الفكرية والخلقية

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهبها ؛ أو أن نضعها في الصف الأخير من أبحاثنا ، وهل حاجتنا إلى تعرف المادة في تعديدها وانكاشها ، والأجسام في مغناطيسيتها وجذبها ، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا في ميولها ومشاعرها ، وتناظرها وتآلفها ؟ نعم إن دراسة الانسان عسيرة ودقيقة ، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة ؛ ولا أظنها أقل تشويقاً من أية دراسة أخرى . فمناصر الثقافة العامة التي تشمل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الإقليمية ، والاقتصادية ،

والهندسة النظرية والفراغية ، والكيمياء ، والطبيعة وما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير . على أن هذه العلوم نفسها نشأت في حجر الفلسفة وترتبت في كنفها ؛ فقد كان الأغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها ، وكان العلم والفلسفة متأخين ومتأخرين ، وكثيراً ما كان الفيلسوف عالماً يقنع القوانين العملية ويوضحها ، وكثيراً ما اهتدى إلى نظريات عليية على ضوء الدراسات الفلسفية . فطاليس وفثاغورس والفيلسوفان الأغريقيان كانا رياضيين وعالين في الطبيعة ، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته : « لا يدخل هنا أحد ممن لم يلوا بأصول الهندسة » ، وإذا جاوزنا المصور القديمة وجدنا أن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية ، وأن لينتر كبير فلاسفة الألمان في القرن السابع عشر هو مبتكر حساب الجزئيات . ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جميعها مسودة بلهجة وروح فلسفية ، وفلسفة العلوم اليوم هي النقطة الحساسة والرئيسية في كل مادة من مواد الدراسة الانسانية . فالعلم ينزع نانية إلى أن يكون فلسفياً وأن يعود أيضاً إلى كنف أم غدته بليانها من قديم ، والأدب أيضاً يتأثر بالفلسفة في أسلوبه ومعانيه ، وغاياته وصراميه ، وربما كان السر في نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التي رقي بها شعورهم ، ودق تفكيرهم ، وسمت عبارتهم

فليس نمة بدم أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس مادامت الحياة تعلق علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقى ينهل من حياضها ؛ ومن السار أن ينق إلى اليوم ولبس في لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجدها فيها العامة سلوهم ، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . إن البحث الفلسفي ، ككل الأبحاث الأخرى ، ضرب من التشقيف لا يصح أن يحرم منه أمة من الأمم ؛ هذا إلى أنه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة ، وأن ينقل الغرب عنا كما نقل عنه ، وبذا تنتظم دورة الفلك ، ويعود التاريخ إلى مجراه ، وتتصل بالفلسفة العربية الحديثة بالفلسفة الاسلامية القديمة ، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية ومائة ألمانية ، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشامية وعراقية ؟

براهيم بيرمي مذكور